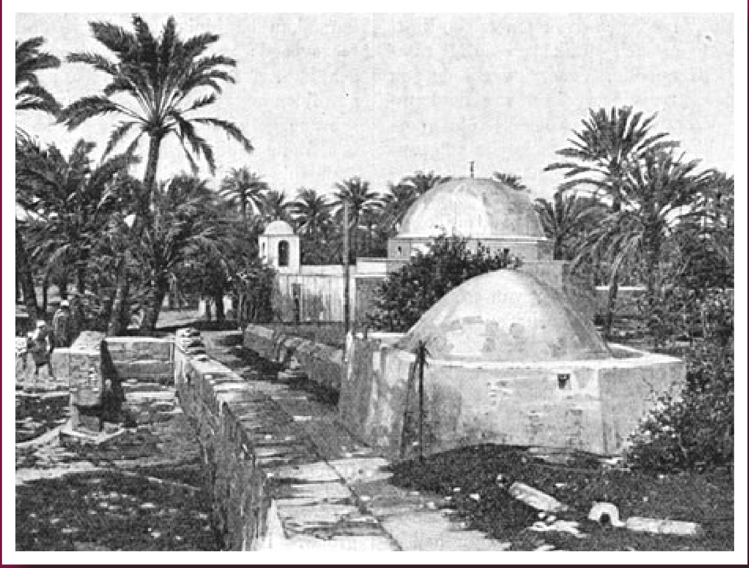
سلسلة الكتب المترجمة (1)

في جبال طرابلس

تأليف

أوغست دو ماتويزيولو



مؤسسة

Libyan Word Bridge

chicago, Illinois

2025

سلسلة الكتب المترجمة (1)

في جبال طرابلس

تأليف

أوغست دو ماتويزيولو.

الترجمة الالية

توفيق عياد الشقروني

مؤسسة

Libyan Word Bridge

chicago, Illinois

2025

سلسلة الكتب المترجمة (1)

العنوان الاصل باللغة الهولندية: In het bergland van Tripolis.

Naar het Fransch van

المؤلف: A. de Mathuisieulx.

الترجمة: تمت بواسطة الذكاء الاصطناعي مع التعديلات اللازمة.

الناشر: مؤسسة :Libyan Wørd Bridge. chicago, Illinois.2025W

الرقم الدولي: 8-49686-365-13-9198

مصدر الكتاب:

The Project Gutenberg eBook
Title: In het bergland van Tripolis
Author: A. de Mathuisieulx
Release date: November 29, 2004 [eBook #14210]
Most recently updated: December 18, 2020
Language: Dutch
Credits:Produced by Jeroen Hellingman and the PG Distributed Proofreaders Team

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

كلمة الناشر

من قلب شغفنا بالمعرفة، ورغبتنا الصادقة في بناء جسور متينة بين الثقافات، انطلقت مؤسسة "Libyan Word Bridge" لتكون أكثر من مجرد دار نشر، بل لتكون منصة ثقافية حقيقية، تتيح للقارئ العربي الولوج إلى عوالم المعرفة الغربية المترجمة، وتشاركه رحلة استكشاف الآفاق الفكرية والأدبية المتنوعة. نسعى جاهدين إلى سد الفجوة المعرفية، وإثراء المحتوى العربي بمواد علمية وأدبية ذات قيمة حقيقية، مستفيدين من الإمكانات الهائلة التي يوفرها التطور المتسارع في مجال الترجمة الرقمية، ومن توفر العديد من الكتب التي أصبحت خارج نطاق حقوق الملكية الفكرية، لتصبح متاحة للجميع دون قيود أو حواجز.

نعلم جيدًا أن الاعتماد على الترجمة الإلكترونية، على الرغم من إيجابياته الكثيرة في الوصول إلى كم هائل من النصوص، لا يزال يشكل تحديًا حقيقيًا يواجهنا بمسؤولية كبيرة. فما زالت هذه التقنية في طور التطور، وقد تعجز أحيانًا عن نقل المعنى بدقة متناهية، أو التعبير عن جماليات اللغة الأصلية، أو نقل المشاعر والأحاسيس التي تحملها الكلمات. إلا أننا نرى في وضوح هذه الترجمة وقابليتها للفهم، دافعًا قويًا للاستمرار في هذه التجربة، فهدفنا الأسمى ليس مجرد نقل الكلمات، بل إتاحة المعرفة وتعميم الفائدة منها، وجعلها متاحة لأكبر شريحة ممكنة من القراء. ونحن على ثقة بأن القارئ العربي، بوعيه وفطنته، سيقدر قيمة هذه الجهود، وسيتجاوز أي قصور لغوي أو أسلوبي قد يظهر في بعض النصوص، وسيتعامل معها بعقل نقدي واعٍ، مدركاً أن الترجمة، مهما بلغت دقتها، تبقى في النهاية وجهة نظر بشرية، تحمل معها جزءاً من

شخصية المترجم وخلفيته الثقافية.

إننا إذ نقدم هذه الترجمات، فإننا نضع نصب أعيننا هدفاً آخر لا يقل أهمية، وهو أن تكون ترجماتنا محايدة وموضوعية قدر الإمكان، وأن تكون بمثابة مرآة تعكس بصدق رؤية المؤلف الأصلية، لا أن تكون صدى لأهوائنا أو تحيزاتنا الشخصية. فكم من مرة رأينا كيف أن التوجه الأيديولوجي للممولين، أو الخلفيات الفكرية للمترجمين، أو حتى المصالح التجارية، قد أثرت على طبيعة الترجمة، وشوهت بعض معانيها، أو حرفتها عن مقاصدها الأصلية. هذه الاعتبارات مجتمعة، تخلق في كثير من الأحيان قيوداً غير مرئية، قد تُنتج ترجمات مُوجّهة أو منقوصة، لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤلف بشكل كامل وصادق.

لذلك، فإننا في مؤسستنا نتعهد بأن تكون ترجماتنا جسرًا آمنًا للمعرفة، لا يشوبه أي تحيز أو تلاعب، وأن يكون هدفنا الأساسي هو خدمة القارئ وتزويده بالمعلومة الصحيحة، دون توجيه أو فرض رؤى مسبقة. سنحرص على تقديم النصوص المترجمة بأمانة وموضوعية، تاركين للقارئ حرية الفهم والتفسير، وتكوين القناعات الخاصة به، بناءً على وعيه وفهمه الخاص. وسوف يقتصر تدخلنا على إضافة بعض الشروح أو المعلومات التي نرى أنها ضرورية لتقريب القارئ من المعنى المقصود، أو لتوضيح سياق النص، أو لإبراز بعض الجوانب الثقافية التي قد لا تكون مألوفة لديه، مع الحرص على عدم فرض أي رؤية أو رأي شخصي.

وبالمقابل، فإننا نؤكد أن تقديمنا لهذه الكتب لا يعني بالضرورة تبنينا أو موافقتنا على كل ما ورد فيها من آراء واستنتاجات، أو أننا نؤيد المؤلف في كل ما ذهب إليه من أفكار أو تصورات. قد نختلف مع المؤلف في بعض القضايا، أو نرى أن بعض أوصافه غير لائقة أو غير مقبولة، ولكننا نؤمن بحق القارئ في أن يرى النص كما هو، دون تعديل أو تلطيف، حتى يكون رأيه عن الكتاب والمؤلف مبنيًا على فهم كامل ووعي تام، وحتى لا نكون نحن الحكام على قيمة النص أو مصداقيته. وحتى نكون أكثر صراحة معكم، فإننا نعترف أن الترجمة هي عمل بشري، وأن المترجمين بشر معرضون للخطأ والسهو، وأن بعض النصوص قد لا تكون دقيقة تماماً، ولكننا في الوقت نفسه نؤكد أننا نبذل قصارى جهدنا لتقديم ترجمات عالية الجودة، وأننا نعتبر القارئ شريكًا لنا في هذه المسؤولية، ونرحب بأي ملاحظات أو تصحيحات منه، بل نشجعه على ذلك.

ختامًا، لا يفوتنا أن ننبه القارئ إلى أن بعض المعلومات والاستنتاجات الواردة في هذه الكتب قد لا تعكس الحقائق العلمية أو التاريخية الراهنة، نظرًا للتطور المستمر للمعرفة والبحث العلمي. ونحن على ثقة بأن القارئ العربي الواعي سيأخذ

هذه النقطة في الاعتبار، وسيتعامل مع هذه الكتب بمنظور نقدي، وبما يخدم إثراء معارفه وتوسيع آفاقه. ففي نهاية المطاف، نؤمن بأن الترجمة هي رحلة مستمرة، لا تنتهي عند الوصول إلى الكلمات، بل تتعداها إلى فهم الأفكار، وتحقيق التواصل الحقيقي بين الثقافات، وتكوين رؤية أكثر شمولاً ووعياً للعالم من حولنا. وهي أيضاً مسؤولية عظيمة، نحملها على عاتقنا بكل ما أوتينا من جهد وإخلاص.

الناشر

2025

كتب أخرى للمؤلف:

- Le tour des Andes.Aventures d›une famille francaise au Guatemala، H.-M. de Mathuisieulx، Published by Maison Alfred Mame et Fils, Tours, 1910، Language: French
- Le Journal des Voyages et des Aventures de Terre et de Mer - n°251 - 22 septembre 1901 - L›idée de Maître HERMANUS - De retour à la patrie - par H. M. de MATHUISIEULX. ETAT
- La Tripolitaine d›hier et de demain، De Mathuisieulx H. M.، Published by Hachette, Paris, 1912، Language: French

ملاحظات:

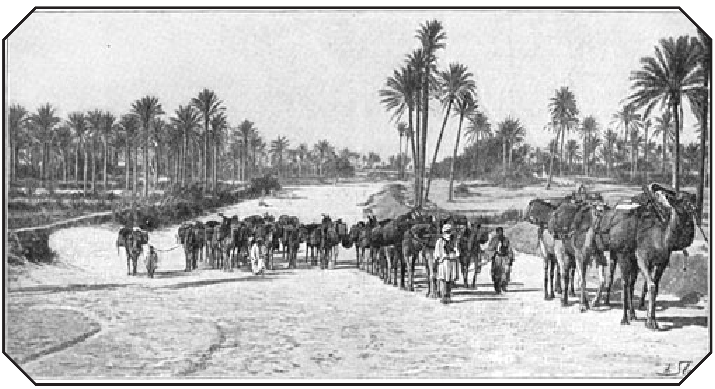
- الحواشي السفلية من الناشر.
- بعض أسماء المناطق تحتاج للتدقيق.

في جبال طرابلس.

إلى الفرنسيين

أوغست دو ماتويزيولو

كانت رحلتي الاستكشافية الأولى في طرابلس عام 1901 غير ذات أهمية بسبب الصعوبات السياسية الطارئة. لحسن الحظ، تمكنت بعد ذلك من القيام برحلتين أخريين، في عامي 1903 و1904، حيث تمكنت من زيارة منطقة أوسع بكثير ودراسة هذا الجزء من إفريقيا، الذي لا يزال غير معروف إلى حد كبير، براحة أكبر. إن الاكتشافات التي أجريت في جميع أنحاء الولاية، وصولًا إلى المناطق التابعة لفزان، ستُعرض في هذه الرواية.



قافلة في الطريق إلى غدامس.

في 20 مارس 1903، غادرت قافلتي طرابلس مع بزوغ الفجر. وبالإضافة إلى

فريقي الخاص، اصطحبت معي العربي العجوز المدعو «المطرقة»، الذي رافقني في عام 1901 بالفعل، وكذلك الشاب المالطي بيبينو.

أقمنا معسكرنا الأول في قرقارش، على بعد ستة كيلومترات غرب طرابلس، لإعطاء فريقنا الوقت الكافي للاستعداد، حيث كانوا لا يزالون حديثي العهد بالعمل، الأمر الذي يترافق في البداية بطبيعة الحال مع بعض الأخطاء والارتباك. بعد تجهيز الخيام والمطبخ وكل شيء على ما يرام، قام أعضاء القنصلية العامة الفرنسية بزيارتنا بعد الظهر لوداع أخير. وبما أن أبناء وطني أعربوا عن رغبتهم في تناول العشاء، فقد أعد لهم الطاهي الفزاني وجبة متواضعة، إلا أنهم اعتبروها بمودة بالغة بمثابة ضيافة سخية وحارة.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كان الخدم يفضون المخيم تحت إشراف بيبينو، قمت بزيارة المناطق المجاورة وزرت قبراً مزدوجاً ذا عراقة كبيرة، تم اكتشافه مؤخراً في غرفة تحت الأرض. وتم بناء هذا النصب التذكاري، المزخرف برسوم جدارية، من قبل أرملة، اسمها أريسوث، لزوجها يوراتانوس ولنفسها. وتكشف أسماء الشخصين المذكورين بالفعل عن أصلهما الأفريقي، وهما ذوي أصل نوميدي للزوج وأصل سامي للزوجة. وكما يحدث غالبًا في الاكتشافات الأثرية، فقد جعلت نقوش هذا القبر توضح نقطة مهمة في التاريخ. وقد وجد السيد كليرمونت جانو فيها دليلاً على انضمام النساء إلى طائفة ميثرا الوثنية. وكانت السيدة أريسوث تتمتع بمكانة شرفية فيها وكان لها الحق في المشاركة في الاحتفالات الدينية. وحتى الآن، كان يُعتقد أن الرجال وحدهم هم من يُسمح لهم بالانضمام إلى طائفة ميثرا، تلك الديانة الآرية القوية، التي كان مهدها هو نفسه مهد الجنس البشري بأكمله، والتي انتشرت في جميع أنحاء العالم خلال العصور القديمة، حتى أبعد حدود بلاد فارس من جهة، وأعمدة هرقل من جهة أخرى.

بالقرب من تلك المقابر، لا يزال قائماً برج روماني متداعٍ بشكل متزايد. ويُحتمل أن يكون العرب قد استخدموه في العصور الوسطى كجزء من سلسلة محطات «البريد» التي أنشأوها على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط. ومن المعروف أن سلسلة من أجهزة الإشارات البصرية كانت ممتدة على طول الساحل الأفريقي، بحيث كان بالإمكان نقل الرسائل في يوم واحد من مصر إلى المغرب.

وقبل التوجه جنوباً نحو الداخل، سنتبع أولاً الساحل وصولاً إلى العجيلات،

لزيارة أطلال ميناء صبراتة، التي لم نرها إلا لمحة سريعة عام 1901. في ذلك المكان، استقبلني قائمقام عربي ذو شخصية مرموقة، يُدعى أحمد بك، وهو ينتمي إلى أقدم وأغنى عائلات طرابلس؛ ولهذا السبب فقد مُنح، في سن مبكرة جداً، إدارة واحة رائعة تحيط بها حقول شعير فاخرة لم أر مثلها في أي مكان في أفريقيا. ولكي يجعل إقامتي بالقرب من أطلال صبراتة أكثر متعة، أمر بإنشاء معسكر عربي على الشاطئ، وقدم فيه أطباقاً وقائمة طعام مدهشة في بلد يفتقر إلى هذه المواد الغذائية.

إن حرية التصرف والطقس الجميل يتيحان لي الآن دراسة بقايا صبراتة على نحو أفضل مما كان متاحاً في القرية التركية، حيث يُمنع التنقيب منعاً باتاً.

تلك الأطلال، التي تبعد 80 كيلومترًا عن طرابلس، هي أطلال أحد المراكز التجارية الثلاثة التي كانت قائمة هناك. وكما كان الحال في أويا ولبدة، كان الفينيقيون هم المؤسسين هنا أيضاً، وقد أطلقوا عليها اسماً مميزاً، لأن صبراتة تعني سوق الحبوب. وجعلها الرومان بلدية ثم رفعوا مكانتها إلى مستعمرة. وأبدت والدة تيتوس وجستينيان، اللذين ولدا كلاهما هناك، اهتمامًا خاصًا بالمدينة. ويعود التدهور المفاجئ ثم الاندثار الكامل للمكان إلى غزوات العرب.

يغطي الرمل معظم البقايا الثمينة تقريباً، بينما يقوض البحر الجدران الجميلة للميناء. فما إن يكشف الريح جزءاً من الكثبان الرملية ويظهر تمثالاً أو عموداً أو فسيفساء، حتى يسارع العرب المتعصبون إلى تدمير تلك الآثار التي تعود إلى الرومان المكروهين. ولحسن الحظ، يحفظ الرمل تلك الكنوز التاريخية بأمان وبشكل جيد، وسيكون هناك كنز كبير ينتظر جمعه، إذا ما سُمح بالتنقيب ذات يوم. وتدل آثار الأسوار وغيرها من البقايا الظاهرة على أنها كانت مدينة كبيرة وغنية؛ إذ كان طولها يتجاوز ثلاثة كيلومترات على طول الساحل، وكانت تضم العديد من القصور والمعابد، وكان مسرحها يتسع لعشرة آلاف متفرج. ولا يزال بإمكان المرء تمييز المكان المخصص لقبائل الجرامنت من فزان، الذين كانوا يقيمون خيامهم في أوقات الأسواق السنوية الكبيرة.

ما الذي يمكن أن يُعزى إليه اختيار موقع هذه المدينة التجارية البحرية؟ فهذا الجزء من الساحل لا يوفر أي حماية على الإطلاق. وبما أنها مبنية على أحد طرفي المنطقة المأهولة وبعيدة عن ملاحات جرجيس الشهيرة، فمن غير الممكن أن تصبح مركزًا للزراعة أو الصناعة. إن موقع صبراتة، في رأيي، لا يمكن تفسيره إلا على أنه ميناء تصدير مباشر لغدامس، مدينة كيداموس القديمة، عند معبر ممر جادو

الواسع، حيث كانت القوافل تمرولا تزال، لربط منطقة غدامس بالبحر.

بين الساحل وجادو، تمتد على مسافة عرضها 100 كيلومتر السهول الكبيرة، وهي منطقة واسعة من الأراضي المنخفضة، تُعرف بالجفارة، وتشكل طريق الوصول من البحر إلى الهضبة العالية في الداخل. وترتفع السهول بشكل تدريجي نحو سفح الصخور العالية في الجبل، حيث تصل في النهاية إلى ارتفاع 300 متر عبر سلسلة من المرتفعات المتصلة.

وخلال ست وخمسين ساعة من المسير عبر الجفارة، كان علينا أن نتوخى الحذر باستمرار، وخاصة في الليل، بسبب تجول اللصوص العرب المستمر في هذه المنطقة بحثاً عن قافلة أو مخيم غير محمي بشكل كاف.

يغطي الرمل الناتج عن الصخور المتآكلة معظم التلال الصغيرة التي ترتفع في السهل؛ ولكن العرب يجدون أحياناً بين تلك المرتفعات الصغيرة ما يكفي من الماء لزراعة الشعير، لأن طبقة من الطين الأزرق تحتفظ بمياه الأمطار.

تعد الجفارة في هذه المنطقة أقل جفافاً بكثير مما هي عليه في جنوب طرابلس. وفي هذا العام، كان الحصاد جيدًا بشكل خاص. ولذلك، فإننا نصادف غالبًا السكان الأصليين، الذين يضعون مؤنهم في صوامع مجاورة. وهكذا تُعرف هنا، كما في أماكن أخرى، أماكن التخزين الجوفية، والتي تُحفر على شكل قنينة ذات مدخل ضيق من الأعلى. وينزل إليها المرء بواسطة حبل مصنوع من الحلفا، وتُغلق الفتحة بحجر كبير. ويمكن إساءة استخدام هذا الخزانات لأشياء فظيعة. ففي منطقة رعي «منطروس»، أقدم عربي مؤخراً على دفن شقيقه حياً، طمعاً في ميراثه. وعندما عثروا على الجثة، تبين كيف ناضل البائس ضد الاختناق.

إن الطريق الذي يُسلك في الجفارة تحدده النقاط التي يمكن فيها العثور على الماء، والتي تقع على مسافات كبيرة من بعضها البعض. فالآبار ليست عميقة جداً في البداية بالقرب من البحر، ولكنها سرعان ما تزداد عمقاً. وهي محفورة في أرض صلبة جدًا، وتحتوي على مياه صافية ذات جودة ممتازة؛ إلا أن عدم وجود حافة حجرية حول الآبار وعدم توفر أدوات لرفع الماء، بالإضافة إلى لا مبالاة العرب، يتسبب في تساقط الرمال باستمرار من الأعلى إلى البئر، مما يجعل الماء متسخاً وموحلاً. ولكي يستقي المرء الماء، يقوم كل عابر سبيل بفك حبل من جمله وإنزال كيس مصنوع من جلد الغنم، الذي يعد جزءاً رئيسياً من الأثاث المنزلي في الأسرة

البدوية. وإذا لم تكن المخيمات بعيدة جداً، فإنهم يصطحبون معهم أحياناً بقرة يربطون فيها نهاية الحبل، ويقوم الحيوان برفع الكيس المملوء عن طريق الابتعاد عن فتحة البئر.

في تلك السهول، يبدو كل شيء أبيضاً في الضوء المبهر. فوفرة أشعة الشمس وحدة سطوعها تطمس الألوان، ويجد البصر صعوبة في تمييز التفاصيل. فالرمل وصوف القطعان وملابس السكان الأصليين، كل شيء يصبح بالفعل كتلة مشوشة على مسافة قصيرة. أما بقع الوجوه الإنسانية الصغيرة، فهي وحدها التي تشكل أشكالًا بيضاوية بنية اللون، والضوء الجميل، الذي يجلب البهجة في كل مكان، هو هنا مصدر كآبة قاسية.

وقبل الوصول إلى سفح جبال طرابلس الكبرى، فإننا نعبر منطقتين ضيقتين تمتدان بموازاة الجبال، أولاهما شريط من المروج، وثانيتهما شريط من الصخور العملاقة. فالأول هو نتيجة الأودية التي تتجمع فيها المياه القادمة من المرتفعات، والتي تنتهي جميعها على بعد عشرة كيلومترات من الجبال، وتجعل التربة خصبة، والثاني هو الحوض الذي تتجمع فيه صخور الجبال المنهارة. وهذان الشريطين، المختلفين في المنظر، يمتدان بشكل متواصل من حدود تونس إلى ترهونة على طول أكثر من 200 كيلومتر.

يتطلب صعود الجبل ثلاث أو أربع ساعات من العمل، على الرغم من تسهيله بالفجوات التي أحدثتها تيارات المياه السابقة، ويمكن للمسافر الاستعداد لمهمة التسلق عن طريق الاستراحة في الواحة الموجودة عند السفح. وقد وفرت لنا بساتين النخيل في شكشوك، الواقعة أسفل جادو، مكاناً للراحة كان فريقي في أمس الحاجة إليه.

كان سكان تلك البساتين يعيشون في بؤس شديد، وكانت الحمى متفشية فيها بصورة غير مسبوقة بسبب ينبوع مجاور يصب في مستنقع.

يُستخدم نوع الحجر الموجود في شكشوك في صناعة أحجار الطواحين، والتي يبيعها سكان قبيلة الشقران في طرابلس لتلبية احتياجاتهم. وبالقرب من القرية، لا يزال بإمكان المرء العثور على قبر أبو عبيدة،[1] وهو أحد الشخصيات البارزة

1 - أبو عًبيدة عبد الحميد الجناوني،(ت بعد: 112 هـ/ 628م) من علماء إجناون، قرب جادو بجبل نفوسة في ليبيا. أخذ العلم بها، ثُمَّ لقي الإمام عبد الوهَّاب بن عبد الرحمن بن رستم.

محلياً، الذي كان يمارس سلطته في جميع أنحاء المنطقة، وخاض معارك دموية مع البربر في الهضاب العليا للحفاظ على السلطة التي منحه إياها الإمام.[2]

في 28 مارس، صعدنا سيراً على الأقدام عبر الفجوة الواسعة عند جادو، والتي يخرج منها وادي جيناون من الجبال. تبعتنا الإبل والخيول وتسلقت بصعوبة أقل منا عبر تلك المتاهة من الصخور المتكسرة، حيث تشكل الممرات على المنحدرات المائلة فوق الهاوية السحيقة شرائط ضيقة. وهكذا سرنا عبر بساتين النخيل التي نمت هنا وهناك في التجاويف، وبدت أحياناً وكأنها معلقة في الفراغ كأعشاش الغربان على قمم الكاتدرائيات.

عند الاقتراب من هذا الجانب، تبدو المرتفعات في طرابلس وكأنها منطقة جبلية حقيقية، ويمكن للمرء أن يتفهم تماماً تسمية السكان الأصليين لهذه الحدود الشمالية للهضبة بـ«جبل»، وهي تمتد من جبال تونس المتصلة بها عبر الدويرات، وصولاً إلى غريان. إلا أنها في الواقع ليست سوى شرفة مسطحة لا نهاية لها، تنحدر بشدة نحو الجفارة بجدار يبلغ ارتفاعه 800 متر. وقد أثرت العوامل الجوية بشكل كبير في هذه الحدود، فحفرت فيها ودياناً عميقة وملتوية على مساحة تتراوح بين 10 و12 كيلومتراً في العرض، وأدت إلى تآكل القمم المنفردة وإلى تجريف الصخور الثقيلة وتعليقها كبروزات خطيرة فوق الهاوية. فإذا ما صعد المرء متاهة هذا الجبل المتآكل ذات المناظر الخلابة، فإنه يرى أمامه سهولاً مسطحة ومتجانسة تمتد إلى مسافات لا نهائية في المناطق الداخلية من أفريقيا.

تُستخدم الفجوات الأوسع بين الصخور كممرات بين الأراضي المنخفضة والهضبة. وكما تُفتح الطرق المؤدية إلى فزان في غريان وفي ككلا، فإن فجوة جادو التي سنعبرها تفتح الطريق المؤدي إلى واحات غات وغدامس الصحراوية.

اسم جادو هو اسم القرية التي بنى الأتراك حصنهم فوقها. وتدعم قمم الوادي العديد من القرى التابعة لمنطقة فساطو الإدارية. وحول هذا الخليج المفتوح على السهل، تتشكل مدن تموقط ويوجلين ومزو وتنداباس ومزغورا ويفات ورغ كمراكز مكتظة بالسكان، وتحيط بها أشجار الزيتون.

عينه الإمام عاملا على حيّز طرابلس، بعد موت أيوب بن العباس، فحاول بإلحاح أن يهرب من المسؤولية، غير أنَّ الإمام عبد الوهَّاب والمشايخ، أصرُّوا عليه، فقبل.

2 - إمام الدولة الرستمية

في إقليم طرابلس، دفعت غزوات العرب البربر إلى التراجع نحو الجبال، وأصبح هؤلاء الأخيرون بذلك من سكان الجبال بشكل شبه كامل، كما هو الحال أيضاً مع إخوانهم، القبائل في الجزائر. ويستثنى من ذلك فقط أولئك الذين لجأوا إلى واحة غدامس وإلى جزيرة جربة. أما هؤلاء البربر، الذين يتميزون بالعمل الدؤوب في حين يتصف العرب بالكسل، فإنهم يشتغلون بالزراعة. فنجدهم يزرعون الشعير في أصغر البقع القابلة للزراعة، والتي تحميها جدران استنادية على المنحدرات الشديدة الانحدار للأودية. أما المناطق الأخرى الأقل تجهيزاً، حيث تبدأ الأراضي الجبلية المتآكلة بالانحدار نحو السهل، فتحمل أشجار زيتون جميلة. لقد رأيت هناك أعمال ري كان من المستحيل على المهندسين الأوروبيين القيام بها. ويمكن القول أيضاً أن جبال نفوسة هي أغنى جزء في الولاية.

«لا يزال تاريخ هذه القبائل البربرية بحاجة إلى التدوين. ولا يقدم لنا المؤلفون العرب أي بيانات للفترات المختلفة. أما كتابات سكان الجبال أنفسهم المدونة باللغة العربية ولكن بأحرف أمازيغية كأحرف التوارق، فيحتفظ بها الفقهاء بحذر شديد في المساجد. لقد حاولت عبثاً الحصول على تلك الكتب الثمينة، عن طريق تقديم مبالغ مالية كانت تُعد ثروة في هذا البلد. ولم يكن أي من السكان الأصليين مستعداً لارتكاب مثل هذا التدنيس.

من المؤكد أنه لا يمكن اعتبار البربر المقيمين في طرابلس اليوم أحفاداً مباشرين للشعوب التي ذكرها هيرودوت وسترابو. ويُفترض أن قبيلة من آسيا أو إثيوبيا اختلطت مع السكان الأصليين، وهكذا نشأت قبائل زوارة ونفوسة وغيرها.

وكثيراً ما يصادف المرء بين هؤلاء السكان الجبليين، ذوي البشرة الداكنة جداً، بعض الأفراد الشقر ذوي العيون الزرقاء، كما هو الحال في الجزائر والمغرب. ولا يزال أصل هذه الانحرافات المتعددة غير مفسر، والفرضيات المختلفة التي وضعت لتفسيرها تتعارض مع بعضها البعض. واستناداً إلى وجود آثار من كتل حجرية كبيرة أو أحجار ضخمة، مشابهة تماماً لتلك الموجودة في أوروبا، فإن بعض العلماء يعتبرون سكان الجبال الشقر في شمال إفريقيا بمثابة إخوة لنا، في حين يبحث البعض الآخر عنهم في آسيا الوسطى أو في إثيوبيا. وتستند نظرية البعض إلى وجود هذه الأنماط في مصر، في حين تستند نظرية الآخرين إلى وجود العرق الأشقر في الجزائر. إن الجهل الذي كان سائداً فيما يتعلق بطرابلس جعل هذه المنطقة من كلا الجانبين الحدود الفاصلة لعمليات الهجرة من اتجاهين متعاكسين. إن وجود أفراد من النوع الأشقر

هو أمر يخص البربر تماماً. وستزيد طرابلس من تعقيد المسألة إلى أن تظهر وثيقة أثرية لا جدال فيها تحل المشكلة.

سواء أكانوا ذوي بشرة سمراء أو بيضاء، فإن البربر في طرابلس يشكلون عرقاً متميزاً جداً، منفصلاً عن العالم العربي الذي يحتقرونه ويفضلون العزلة عنه، إلى درجة أنهم لم يسمحوا قط بزواج نساء الجبل من أحفاد الغزاة. لقد انتشر الإسلام بينهم، ولكن تمسكهم بعقائدهم القديمة أدى إلى ظهور طائفة دينية خاصة بهم تنتمي إلى المذهب الإباضي. ويمكن العثور في عقائدهم على تقاليد مسيحية مختلطة ببعض الخرافات الوثنية، كما هو الحال لدى سكان منطقة مزاب في الجزائر، الذين تربطهم بهم صلة قرابة وثيقة. يخضع سكان نفوسة ورحادة ومزاب لسلطة زعيم ديني يتخذ من عمان مقراً له.

يشعر البربر الطرابلسيون بالقوة والشجاعة، وهم فخورون جداً باستقلالهم النسبي الذي دافعوا عنه ببسالة ضد الأتراك في منتصف القرن الماضي، كما فعلوا ضد العرب في القرن الحادي عشر. وتحتفظ الحكومة التركية في جادو وحدها بحامية قوامها ثمانمائة رجل، وتسيطر قلعتهم على المنطقة بأكملها. ولا يُسمح للقبائل المتوحشة بحيازة أي أسلحة نارية على الإطلاق، وهم الآن يقيمون بهدوء في قراهم، ويجتمعون معاً في المساء للترفيه عن بعضهم البعض بقصص مآثر أجدادهم. وعادة ما تنتهي تلك التجمعات، حيث شهرة الرومي هي الموضوع الأساسي، بأغان وطنية تُغنى بلغة طوارق الصحراء. ولم تستطع الحضارة الحديثة أن تؤثر في هؤلاء الناس الذين يرفضون المساعدة الطبية ويفضلون الموت على أيدي السحرة الجاهلين. وهم متشددون لدرجة أنهم يمتنعون عن التدخين وشرب الشاي، لاعتبارهم تعاطي التبغ والشاي خطيئة. ومن المعروف مدى ولع الناس في أفريقيا بالتدخين، ومدى حبهم للشاي، الذي يحل محل القهوة في كل مكان.



القبر العتيق في قرقارش.

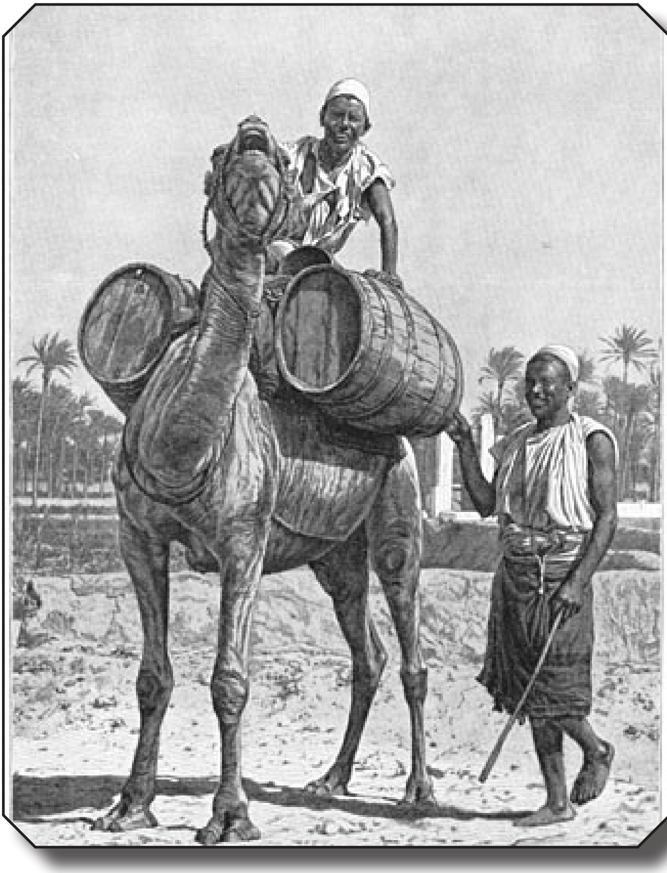
في جادو، كما هو الحال في معظم أنحاء البلاد الجبلية تقريباً، المياه غير صالحة للشرب بسبب الكمية الكبيرة من المغنيسيوم التي تحتويها. ولهذا يضطر السكان إلى التوجه إلى السهول لتزويد أنفسهم بالضروريات من المياه. وتستخدم القوات التركية المتمركزة في قصرها أو حصنها الواقع على ارتفاع 750 متراً، قطيعاً من الجمال لحمل قرب الماء المملوءة، الأمر الذي يستلزم زيادة كبيرة في التكلفة.

بما أن الضرائب كانت تُجمع في كل مكان على شكل عيني، أي بالمنتجات بدلاً من النقود، سواء كانت هذه المنتجات بشراً أو حيوانات أو محاصيل زراعية، فقد وضعت الحكومة العثمانية نظاماً لتحويل هذه المنتجات إلى قيمة نقدية موحدة تختلف باختلاف المنطقة وإنتاجيتها. ففي منطقة جادو، مثلاً، كانت الضريبة المفروضة على الرجل الواحد تساوي ضريبة الجمل الواحد، وكانت كلتاهما تساوي ضريبة بقرتين، أو عشرة أغنام، أو خمسة وعشرين ماعزاً، أو خمسة وعشرين شجرة زيتون، أو خمسين نخلة، أو مئتي شجرة تين.

كانت المساجد التي تقع على بعض التلال في منطقة فساطو تمثل المركز الديني الرئيسي لسكان المنطقة في الماضي، وكان لسكان المنطقة اهتمام كبير بالتاريخ

والفلسفة، واعتبروا المنطقة بأكملها مكاناً مقدساً. ولكن بعض هذه المساجد أصبحت مهجورة حالياً، ويُشاع أن الأمور التي تحدث فيها ليست على ما يرام.

عندما يصل المرء إلى نالوت، الواقعة في أقصى غرب منطقة البربر، يسير على طول سفح الصخور، ويمكننا عندها دراسة التكوين الجيولوجي لهذه الصخور الشاهقة الجميلة. وعلى طول الطريق، نجد العديد من الأودية الجافة التي كانت في السابق تصرف مياه الأمطار من المرتفعات، ولكنها الآن جافة، وقد حفرت هذه الأودية مجاري ضحلة في منطقة الجفارة.



لوازم للمخيم الذي تمت إزالته.

وجدت في واحة الجوش آثاراً رومانية، لا يمكن التعرف عليها إلا من خلال بعض قطع الجدران المتبقية. ومع ذلك، كان بها مكان مهم، يُدعى صابرية، وهو نفس الاسم الذي أُطلق أيضاً على صبراتة الواقعة على ساحل البحر. وهذا الاسم، الذي كان بلا شك ذو أصل أجنبي، يشير إلى صبراتة الداخلية، التي أنكر وجودها العديد من العلماء على الرغم من ادعاءات بطليموس. كان الجغرافي اليوناني أكثر اطلاعاً منا، وإذا كان هناك سوق للميناء الكبير على البحر الأبيض المتوسط، فلا بد أن يكون هنا في أحد المستودعات الرئيسية حيث تلتقي الهضبة بالسهل.

وعلى مسافة أبعد قليلاً توجد واحة تيزي، حيث تنبعث منها رائحة كريهة لا تطاق. ولما وصلنا وجدنا جماعة من العرب يعملون على كشف عين ما عن طريق حفر الأرض بأيديهم. وأدى هذا العمل، الذي استمروا فيه لمدة شهر، والذي تم بطريقة غير متقنة، إلى انتشار المياه في المنطقة، وتسبب في تسوس وتسمم الحي. وتمتلئ القنوات المحيطة بالمقبرة بالجثث التي لا يكترث الناس بدفنها، ورأينا كثيراً من الهياكل العظمية التي صارت أكفانها خرقاً.

مدخل وادي نالوت أوسع من مدخل وادي جادو. وتقع القرية، التي يفضل السكان الأصليون تسميتها دالوت، على ارتفاع 750 متراً فوق قمة صخرة شديدة الانحدار تتدلى على جرف يبلغ ارتفاعه مئتي متر. بُني أحد المنازل على جدران الصخر المتعامدة تقريباً، بينما يمتد منزل آخر عبر بداية الهضبة. أصل الوادي يشكل الشارع الرئيسي. وبعض الشوارع الأخرى ضيقة جداً بحيث لا يستطيع المرء أن يمر بها دون أن يصطدم بكتفه. وتتكون القرية جزئياً من مساكن تحت الأرض، حيث يوجد عدد كبير من سكان الكهوف في منطقة طرابلس الجبلية.

مقابلها بين الأكواخ، توجد قلعة قديمة منحوتة بالكامل في الصخر، من غير طبقة واحدة من الحجارة. هناك كان السكان يخزنون ثرواتهم ويجدون ملجأ في أوقات الخطر. في الوقت الحاضر لا يزالون يخزنون بضائعهم وطعامهم هناك. لكل عائلة مستودعاتها الخاصة في القلعة، وقد نُحتت مناطق التخزين في الجدران الصخرية. والفتحات الثلاثمائة التي رُتبت بانتظام، تعطي مظهر الكولومباريوم أو غرفة الدفن الرومانية ذات المنافذ العديدة لجرار الرماد. في الصباح تأتي ربات البيوت ليأخذن ما يحتجن إليه لوجبة اليوم، وفي فترة ما بعد الظهر يظهر الرجال وهم يمارسون تجارتهم كما في السوق، وبعد ذلك يسلمون المفتاح للحارس الذي يُدعى دلال. ولا توجد درجات للصعود إلى الفتحات العلوية، بل يسحب أصحابها

أنفسهم إلى ارتفاع يصل إلى خمسة أو ستة أمتار بالتمسك بالأجزاء البارزة من الصخر.

مثل كل قرى الجبل، تبدو نالوت من بعيد ككومة من الركام، لأن المنازل هناك شُيدت بأقصى قدر من التجاهل للخط المستقيم والسطح الأملس. الجدران الجصية والحجرية ملتوية وتدعم سقفاً عبارة عن فوضى من عوارض خشب الزيتون والنخيل.

وأكثر ما أدهشني هو عدم وقوع أي حوادث للأطفال في هذه القرية فوق الهاوية، حيث لا يخترق أي شعاع من أشعة الشمس تلك الأعماق. رأيت مجموعة من الشباب يرتدون الأسمال ويلعبون على حافة أعماق متثائبة تقشعر لها الأبدان. ومن هناك يمكن رؤية بانوراما تمتد لمسافة ثلاثين كيلومتراً، من جهة كتل الجبال المتآكلة، ومن جهة أخرى سطح الهضبة الأملس. وقد نمت بساتين النخيل في عدد قليل من الشقوق، حيث تنشأ الجداول.

ولمراسم الزواج خصوصيات كثيرة في نالوت، حيث يبقى الضيوف محبوسين لمدة أربعة أيام كاملة، ويقضون الوقت بتناول أكوام من الدقيق الممزوج بالزيت. وفي يوم الحفل، تقوم العروس أولاً بغسل ملابسها برفقة موكب من الفتيات الصغيرات، ثم يعيدها الأصدقاء إلى منزل والديها، وتبدأ الحفلة الحقيقية بغناء الكورال المستأجر. ثم يحمل جمل مزين العروس إلى زوجها بين الفرسان الذين ينغمسون في أعنف أنواع الفرح. يبقى جميع الحاضرين خارج منزل العروسين منتظرين حتى يأتي الزوج لإبلاغهم بإتمام الزفاف. وفي تلك اللحظة تنطلق المفرقعات النارية من كل جانب لتعلن في الوديان المجاورة عن إتمام عقد القران.

لم تنتهِ الاحتفالات المعقدة، ولكنها ستستمر لمدة أسبوع آخر، مع تخصيص الليالي أيضاً للألعاب والاحتفالات. وفي بعض الأحيان تحدث عمليات هروب وهمية بين الشباب والفتيات، ويتدخل كبار السن لإحلال السلام بين المذنبين وآبائهم. تلك هي حفلات الزفاف حيث يستمتع الناس بأنفسهم حقاً!

كان قائمقام نالوت شيخاً طيباً يعاني من مرض في الورك نتيجة حادث تعرض له قبل نحو عشرين عاماً. أثناء تدخله لفض شجار دموي، أصيب بطلق ناري لم يُستخرج بعد. كان هذا المسؤول لطيفاً للغاية معي، حتى أنه دعاني لحضور عرض عسكري للجنود، وحظيت بتكريم يليق بالجنرالات، وهو أمر بالغ الأهمية لضابط

متقاعد لم يصل إلى مراتب عليا.

للأسف، لم أحصل على إذن بالسفر إلى رحادة التي تبعد عنا 250 كيلومتراً فقط. فقد رفض الحاكم العام طلبي رفضاً قاطعاً، بحجة الخطر الذي يواجه الأجانب في تلك المدينة الكبيرة. اضطررت للاكتفاء برحلات قصيرة في هذا الاتجاه، ثم توجهت إلى وازن، آخر مركز مأهول بالسكان على الحدود التونسية.

ومن نالوت، قمنا بإعادة خطواتنا لنعبر البلاد الجبلية بأكملها من الغرب إلى الشرق، ولكن هذه المرة عبر سلسلة جبال الهضبة، مما أتاح لنا زيارة جميع مناطق البربر. تأخذنا رحلة اليوم الأول إلى قلعة محمود، وهي قلعة تضاهي القلعة السابقة في ارتفاعها. كان الطريق المتعرج المؤدي إلى هناك شديد الانحدار لدرجة أن الجمال تئن وتتوقف في النهاية وهي منهكة. كان علينا تفريغها وحمل الأمتعة إلى الطابق العلوي واحدة تلو الأخرى. اضطررت إلى خلع حذائي المرصع، لأن أدنى انزلاق كان سيؤدي إلى سقوط خطير.

في محمود جزء من السكان عرب، وهي واحدة من الأماكن القليلة التي نجح فيها تدفق الغزاة في القرن الحادي عشر في اختراق أحد المداخل المؤدية إلى قمة الهضبة. ويحيط بالقلعة نحو مائة وخمسين منزلاً وبعض أشجار الزيتون، ويضم الجزء الضيق جداً مزارع جميلة لزيتون شاب كما يبدو لي.

استمر طريقنا الآن في خط مستقيم خلف المنطقة المنخفضة، ولم نقترب منها إلا لزيارة مناطق البربر. وكانت الهضبة المهجورة بالكامل مغطاة بعشب الحلفاء في حزم كثيفة، والتي لم يكن أحد ليفكر في استغلالها لبعدها الشديد عن البحر، حيث تقوم السفن بتحميل هذا العشب لمصانع الورق في أوروبا. كان مرشدي، وهو بربري قوي البنية ذو بشرة نحاسية اللون، ينحني مراراً وتكراراً ليلتقط شيئاً من الأرض الرملية. وفي أحد الأيام أحضر لي كيساً مملوءاً، كانت عبارة عن كمأة بيضاء جمعها على طول الطريق. وهذه الكمأة الصغيرة ليس لها رائحة أخيها من بيريغور على الإطلاق، ويبدو الأمر كما لو أن المرء يتذوق اللفت.

لا يملك مرشدي اللطيف، الذي يُدعى (عيسى)، أي فكرة عن الزمان والمكان، وهو أمر شائع بين البدو. وعندما أسأله عن المدة المتبقية للوصول إلى مكان المخيم المحدد، يجيبني دائماً: "لم يتبقَ سوى مسافة قصيرة، وسنصل قريباً"، على الرغم من أنه يتبقى لنا أربع أو خمس ساعات عادة.

لذلك وصلنا في إحدى الأمسيات متأخرين جداً إلى كاباو، حيث كنت آمل، وفقاً لمعلومات عيسى، أن نصل في الساعة الثالثة بعد الظهر. كان فريقنا متعباً جداً لدرجة أن الجميع ناموا دون عشاء. ولكن يا له من منظر بديع عندما أظهر لنا الفجر المدينة معلقة، كما لو كانت، فوق هاوية عميقة في إطار يفوق أجمل ما أبدعه خيال غوستاف دوريه!»[3]

وفي مدينة كاباو قلعة محفورة في الصخر، كقلعتي محمود ونالوت، وهي مخصصة لنفس الغرض. إنه آخر ما سنجده. قبيلة هذه المنطقة، التي تُدعى بارابا، مثقفة للغاية، وتزود المنطقة بأكملها بالفقهاء والمعلمين الدينيين. ويحيط بالدفيئة نحو أربعمائة منزل، ويمتد إلى مسجد تحت الأرض في وادٍ يشبه مسار عربة عملاقة بين جدارين شديدي الانحدار يصل ارتفاعهما إلى مئة متر، ولا يفصل بينهما سوى عشرين متراً.

وتبعد المراكز المبنية هنا عن بعضها نحو خمسين كيلومتراً، بحيث يمثل كل منها رحلة يوم واحد بالنسبة لنا. ستسمح لنا إمداداتنا بإقامة معسكر على الهضبة المنعزلة، ولكن من الأفضل أن نكون مقتصدين في مواردنا في بلد لا يمكن فيه تحديد مدة إقامتنا بدقة. في كل مكان توقفنا فيه، كان يُذبح خروف، وتُجلب جبال من الأرز أو الدقيق للقافلة، بأسعار قد تبدو زهيدة في أوروبا، ولكنها مرتفعة في نفوسة.

وتشكل الزراعة وتربية الأغنام، التي تُمارس بعناية في الأودية بين الجبال وفي بعض أجزاء الجفارة أو الهضبة، وسيلة عيش سكان الجبل. ونادرا ما يفتقرون إلى دقيق الشعير والزيت والتين واللحوم. يبدأ موسم قطف الزيتون في شهر أكتوبر، ويُقطف التين في أبريل. أما زراعة الكروم، التي تُمارس في الحقول التي يمر فيها المحراث، فتشغلها بشكل خاص المستعمرات اليهودية الصغيرة، التي يُسمح لها بإنتاج النبيذ من العنب، وهو نبيذ مر المذاق. في الموسم السيئ تجد الماشية مأوى في الكهوف، وعندما تهب أولى رياح الربيع الفاترة تنتشر فوق مروج الهضبة.

يزرع بعض البربر البذور في أماكن بعيدة في الجفارة، ويتركون نساءهم في القرى لحراسة البيوت وصناعة الملابس الصوفية، وبعد ثلاثة أشهر من الغياب يعود هؤلاء المستوطنون.

3- پول غوستاڤ دوريه، رسام فرنسي

في طمزين، كما هو الحال في أي مكان لا توجد فيه ينابيع، بنى السكان الأصليون خزانات للمياه تفيض في الشتاء.

السلامات سكانها عرب، كحال محمود، وبها أشجارتين جميلة. وقد ولد الشاعر إسماعيل في الرباط، والذي، بحسب الشماخي،[4] لم يسمح قط لكذبة واحدة بالتسلل إلى أشعاره. وكان إسماعيل[5] الذي كتب قصائده في السجن تقياً. وعندما غادر طرابلس، حيث أبقاه الباشا مقيداً لفترة طويلة، ألقى اللعنة التالية على المدينة: «ليبعث الله عليكم عدواً لا يخاف الله ولا يخشى المعاصي»، وبعد ذلك بوقت قصير سيطر المسيحيون على طرابلس. [6]

لقد مررنا بجادو دون توقف على الرغم من إلحاح قائمقام الوادي، فقد كان الوقت ينفد ولم نتمكن من قضاءه في الأماكن التي زرناها بالفعل.

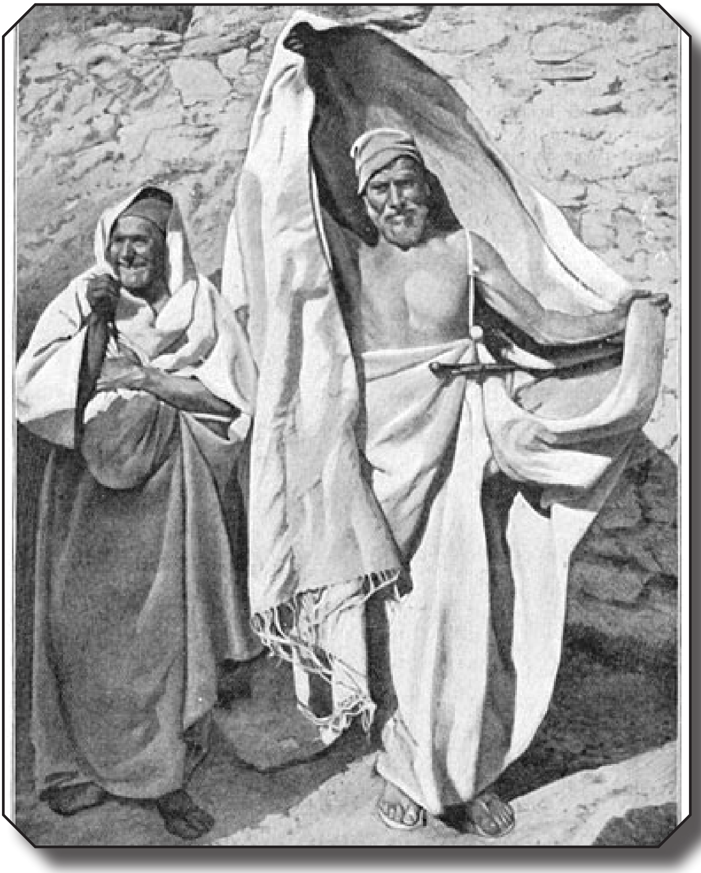
الزنتان، الواقعة على بعد 20 كلم شرق جادو، أعلى من الأماكن الأخرى في بداية البلاد الجبلية. ولدَى السنوسيين زاوية في Elgoeassen ولديهم قطعان غنية من إناث الإبل للتربية. معظم المنازل تحت الأرض، وأعتقد أن عدد السكان يتجاوز الألف، معظمهم من المزارعين. وهناك العديد من معاصر الزيت العاملة التي تحركها الجمال التي تتجول حول المطاحن وهي معصوبة الأعين. يتم تخزين النفايات التي تُحول إلى أقراص، واستخدامها كعلف للحيوانات.

كنت أعرف يفرن بالفعل، لأنني أقمت بها عام 1901، ولكن كان علي أن أتوقف بها الآن لزيارة الحاكم العام للجبل الذي يقيم بها. كان هذا المسؤول الرفيع يستحق امتناني، لأننا مدينون له بالمساعدة وبالترحيب الذي لقيتْه بعثتنا في كل مكان في أراضيه. بالإضافة إلى ذلك، كتب لي القائمقام، وهو لقبه التركي، أنه يرغب في مرافقتي شخصياً لبضعة أيام في رحلتي القادمة.

4- يقصد ما كتبه أبوالعباس الشماخي في كتاب السير.

5- -أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجطالي

6- - العبارة عند الشماخي (سلط الله عليك عدوا لا يخاف ربا ولا يتقى ذنبا فما مضت الا أيام قليلة فأخذتها النصارى)



أمازيغ من نفوسة.

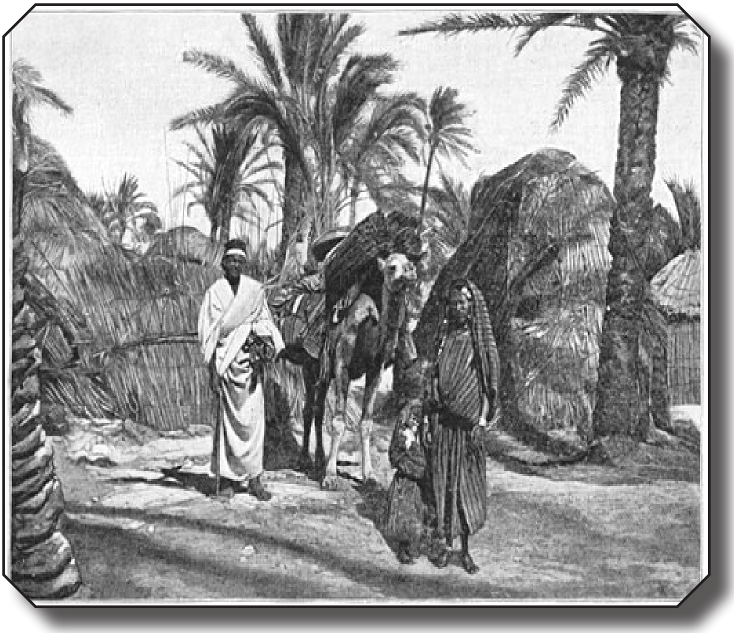
كنا قد وصلنا للتو إلى يفرن، عندما وصلت كتيبة جديدة لتحل محل الكتيبة القديمة التي كانت مُقيمة هناك لمدة عام. كانت المدينة مزدحمة للغاية، وسادت الحيوية الأكبر حول القلعة وفي مقاهي تاقربوست. وتردد في الساحة أمام الثكنات صهيل آلاف الجمال التي كانت تحمل المؤن للحامية الجديدة. وكل هذا أعطى هذه الزاوية المنعزلة تحت أشعة الشمس الساطعة بهجة نادرة الحدوث.

بنى الأتراك قلعة حديثة في موقع الحصن القديم، حيث حاصر البربري «غوما» الحامية التركية عام 1850، واستطاع بذلك تحرير المنطقة بأكملها من الغزاة لفترة قصيرة. ولا تزال ذكرى هذا البطل الشجاع حية أكثر من أي مكان آخر، ويسرد الناس يومياً حكايات بطولاته، وكيف كان يشير إلى الأعداء الذين يريد قتلهم أثناء المعارك، وعندما يضع بندقيته على خده لا يخطئ هدفه أبداً. كانت أهم تكتيكاته الاقتراب من أسوار الحصون ليلاً مع جميع أتباعه حاملين الكثير من القش، ثم كانوا يلقون الحزم المحترقة من القش على الأسوار باستخدام السلال وحبال طويلة، وعادة ما كان يختنق أفراد الحامية حتى الموت قبل أن يستسلموا.

لقد وجدت عند مضيفي الجديد مأكولات ممتازة كانت معدتنا المرهقة في أمس الحاجة إليها. وكان على المائدة غزال صغير، كان مضيفنا مولعاً به للغاية، وكانت تُقدَّم له كل أنواع الحلوى، ولكنه كان يفضل قليلاً من التبغ أكثر من أي شيء آخر.

وعندما انطلقنا مرة أخرى في الخامس عشر من أبريل، كانت قافلتنا ممتلئة إلى حد كبير بحاشية المحاسب يوسف، الذي كان يرافقه أمينه العام، وطباخه الممتاز، وحشد من الخدم وضباط الشرطة، وأخيراً الزنجية الشابة زينب. هذه الفتاة القوية والجميلة التي تبلغ من العمر نحو عشرين عاماً، لا تعرف شيئاً عن أصولها. وفي طفولتها المبكرة، أخذها التجار من والديها ونقلوها إلى فزان، حيث أطلقت السلطات التركية سراحها.»

كان هدفنا الآن منطقة ورفلة، وهي الجزء الجنوبي الشرقي من هضبة طرابلس، وتنحدر منطقة الظاهر بأكملها، كما يُطلق على الجزء الداخلي من الهضبة الكبرى أحياناً، نحو الجنوب. ويبدأ المنحدر عند الحافة الشمالية، بحيث تنخفض الأرض نحو البحر الأبيض المتوسط بسرعة، بينما ترتفع جهة الصحراء تدريجياً نحو مرتفعات غدامس وسوكنا. ويوجد منحدر آخر في الجانب الشرقي، لكنه أقل أهمية من الأول. ولهذا ينبغي أن يتجه وادي سوف الجين وزمزم، وهما من أماكن تخزين المياه الكبيرة في المنطقة، نحو الجنوب؛ لكنهما يواجهان سلسلة من الصخور الصغيرة الموازية لتلك الموجودة في الجبال، حيث يضطران إلى اتخاذ اتجاه غير طبيعي، مما يأخذهما نحو خليج سرت الكبرى. للانتقال من يفرن إلى ورفلة، فإن الطريق المستقيم، والطريق الوحيد الصالح للاستخدام بسبب الماء، هو قاع أحد هذه الأودية، وادي سوف الجين. دخلنا ذلك الوادي على بعد بضعة كيلومترات من جندوبة، حيث بقينا لرؤية الآثار المثيرة للاهتمام.



في الجزء العلوي من سوف الجين.

أقمنا مسيرة احتفالية، ورافقنا كبار شخصيات المدينة الذين جاءوا لاستقبال سيدهم التركي العظيم. وقد أحاط بنا سرب كبير من الفرسان تعبيراً عن التكريم، وسرعان ما انطلقت جميع الأحصنة الصغيرة النشيطة للسكان المحليين في سباق سريع. وعندما وصلنا إلى مكان المخيم المحدد، لم يتمكن الكثيرون من كبح جماح أحصنتهم واستمروا في الركض لمسافة طويلة.

تتوافق أطلال جندوبة محلياً مع طريق فينازا لأنطونينوس الشهير، ويطلق السكان الأصليون اليوم على المكان اسم إيباريا أو جريبين. وقد حُفظت الرسومات الموجودة في الكنيسة المسيحية بشكل جيد، حيث لا يزال من الممكن التعرف على الصلبان البيزنطية في مواضع عدة.

هناك عدة آثار للمسيحية في طرابلس، تعود إلى زمن حكم الأباطرة في القسطنطينية، أو بالأحرى بيزنطة. وهي ليست مناسك للموحدين، كما في صعيد مصر، بل أديرة وكنائس، كما رآها «باتشو» بأعداد كبيرة على هضبة القيروان. وتوجد مثل هذه المستعمرات للمؤمنين والموالين حتى الحدود الخارجية للولاية، مما يثبت أن الحكام الملتزمين بالعقيدة المحمدية تركوا الكفار المسيحيين وشأنهم في بداية حكمهم. لكن هؤلاء الذين اضطروا إلى مواجهة هجمات الشعوب التي تعيش في الجنوب، قاموا بتحصين مساكنهم ولجأوا إليها عند أدنى خطر. ولهذا السبب، عندما يتحرك المرء إلى الداخل، يلاحظ اهتماماً أكبر بالتحصينات في تلك المناطق المسيحية؛ ومن مزدة فصاعداً تصبح حصوناً حقيقية تقع على مرتفعات معزولة.

خلال ثلاثة أيام من المسير، وهي ثلاثة أيام طويلة وصعبة، لم نكتشف أي معسكر للبدو. إن عقم التربة لدرجة يمكننا الافتراض معها أنه في العصور القديمة لم تكن المنطقة الواقعة بين يفرن ومزدة مأهولة بالسكان، ولكن من المؤكد أنه كانت هناك بعض المحطات على الطريق التي تمر بها، حيث توجد آثار لها في المدينة.

المدينة، الواقعة على بعد 20 كيلومتراً جنوب جندوبة، هي سهل رملي لا نهاية له، وفي وسطه ترتفع أسوار ساحة كبيرة، ويشهد جمال وأبعاد الحجارة المنحوتة على الكثير من العمل الدقيق. لا بد أن المكان كان مهماً لأن الرومان استخدموا فيه مواد جلبوها من بعيد، ولا شك أن الجدار الخارجي الكبير، الذي يبلغ طول كل جانب منه 40 متراً، كان بمثابة مسكن للقوافل المسافرة. لا يزال من الممكن العثور على بقايا القلعة في المنتصف ومدخلها شديد التحصين. ولا تخبرنا الوثائق القديمة شيئاً عن المدينة التي أطلق عليها العرب اسم رقدة. هذا الاسم يعني «المدينة النائمة»، وربما يكون مستمداً من أسطورة محمدية، يُقال بموجبها إن الآثار مسكونة، فتتجول الظلال كل ليلة وتنام على الجدران.

نصل إلى قاع وادي سوف الجين عند التقائه بوادي ليلا، ويمكن للمرء أن يقول التقاء إذا كانت أنهاراً، ولكن هنا لا شيء يتدفق، فهي ليست أكثر من مجرد أودية لا يمكن رؤية عرق واحد من الماء فيها.

ينبثق وادي سوف الجين من السهول المتموجة جنوب جادو، وسرعان ما

يتحول إلى مضيق ذي جدران متعامدة. ويبلغ عرضه في مزدة كيلومتراً واحداً ويمتد أحياناً لمسافة عشرة أو اثني عشر كيلومتراً بين ضفة وأخرى.

وأعتقد أن اسم سوف الجين، الذي يعني وادي الشياطين، أُطلق على الوادي بسبب كثرة الثعابين التي تعيش في الرمال. تقتل هذه الثعابين الكبيرة القطعان من حقول توبول حتى البحر. وأظهر لي رجالي رقائق من الصوف تتدلى من الشجيرات، ووفقاً لهم، كان هذا دليلاً على قتال عنيف بين البواء وفرائسها. لقد عرفت ذات مرة أبا راعٍ قتلته حية، وقد حدث ذلك في العام السابق، وعندما اقترب رفاق الشاب من صراخه، لم يتمكنوا من تقديم أي مساعدة، لأنه كان قد فارق الحياة بالفعل دون جرح واحد. وضُرب الثعبان حتى الموت، ولكن كان من الصعب تحرير الجثة، فقد كانت عالقة جداً بين لفائف الوحش الضخم.

وتستمر سلسلة الآثار دون انقطاع على ضفتي الوادي. ويوجد في تينيناي معبد جميل ذو حجارة منحوتة بشكل رائع، حيث يرسم البدو الرحل اليوم طواطم قبيلتهم على الجدران، والجدران مليئة بها.

توجد الأبراج المستديرة بشكل أساسي حيث يتسع وادي سوف الجين إلى سهل. ويبدو أن قصر أرجوس كان الحصن الرئيسي للبلد المسطح بأكمله، لأن الآثار الموجودة على الأراضي المرتفعة هي بلا شك آثار قلعة محصنة، حيث يمكن لجميع سكان المنطقة أن يجدوا ملجأ إذا لزم الأمر.

هناك لقاء متكرر بين الآثار الرومانية ومعسكرات البدو الحالية، وقد تمكنا من تحديد ذلك، ليس فقط بالنسبة لقاع وادي سوف إد دين، ولكن أيضاً لجميع الأودية الأخرى في المنطقة. لذا فإن الأجزاء القابلة للزراعة من البلاد هي نفسها الآن وفي الماضي.

ولم يتم العثور على أي أثر للرومان خارج الوديان، وهذا دليل على أن الرومان، كالبدو اليوم، اقتصروا على أحواض الأودية. كما تُظهر قاعدة الآثار القديمة، الواقعة على حافة السهول الصخرية، أن الأرض حافظت على مستواها، وأن الزراعة بين وديان الأنهار كانت مستحيلة في العصور القديمة كما هي اليوم. لكن الآثار التي نكتشفها في أعماق الوديان تشير إلى استغلال التربة بشكل أكثر أهمية مما هو عليه الآن.

في بلد كانت للعصور القديمة أراضيه الغنية، يعيش المواطن اليوم حياة

بائسة، ومع ذلك فإن الظروف المناخية لم تتغير، كما يتضح من النصوص والآثار. وهذا نتيجة لأن الرومان كانوا عمالاً، بينما كان العرب يرزحون في كسل مخزٍ. في الظاهر، يجب على المرء أن يبذل أقصى جهد إذا أراد أن يحقق أي نتيجة، لأن المياه المفقودة على السطح يمكن العثور عليها في كل مكان تحت الأرض. لكن الطبقات التي تحتفظ بالرطوبة تقع على أعماق كبيرة، فالآبار القليلة التي اكتشفتها كان عمقها 60 أو 80 متراً. في زمن الرومان، تحققت نتائج رائعة من خلال العديد من عمليات الحفر والسدود المبتكرة، والتي ظلت في حالة جيدة لعدة قرون. العربي يفضل النوم تحت أشعة الشمس ويعيش حياة بائسة، ومنذ أن استقر في البلاد حل الخراب. وباستثناء عدد قليل من الواحات على البحر والوديان، حيث يعيش البربر في البلاد الجبلية، فإن المسافر في طرابلس يتجول عبر المناظر الطبيعية القمرية، وإذا لم تعلمنا شدة الضوء والرياح العنيفة خلاف ذلك، فيمكن للمرء أن يتخيل نفسه على اللحاء البارد لحارسنا الليلي.

«غادرنا وادي سوف الجين عند أرجويس لعبور الهضاب الصخرية التي تفصل الوادي عن ورفلة. كان عبور السهول المليئة بالحجارة الضخمة أمراً شاقاً للغاية، لأننا اضطررنا للقيام بذلك في طقس مظلم وضبابي. ولم نجد هناك أي نبات من العشب، ولا ارتفاع واحد من الأرض يكسر هذا الرتابة المميتة. غالبًا ما كان علينا النزول إلى الوديان العميقة، التي ظهرت أمامنا فجأة بجدران عميقة وشديدة الانحدار، لدرجة أنه لم يكن لدينا أي فكرة عن وجودها على بعد 200 متر. هذه السهول رتيبة لدرجة أن السكان الأصليين لم يتمكنوا من إيجاد طريقهم فيها بدون أكوام الحجارة التي جمعوها على مسافات معينة للإشارة إلى الاتجاه الصحيح. وتضفي بقايا الصخور البركانية السوداء مزيداً من الكآبة على المناظر الطبيعية، ويتبادر إلى ذهن المرء أن زلزالاً مزق كل شيء وتناثرت القطع حوله.

تتألف ورفلة، التي وصلنا إليها في 22 أبريل، من نحو عشر قرى متتالية على طول ضفتي مضيق عميق يُسمى بني وليد وتقع فيه بو عباس وجويدا وسيخا ودهاكا وحسنى وتربا وكير أنالا وتارا، فوق مجرى الوادي العريض المسطح على ارتفاعات تبلغ نحو مئة متر. سهل وحافة ووادي، كل شيء بلون اللحم. والحجارة التي تُبنى منها البيوت لها نفس اللون، ولا يمكن تمييز القرى إذا لم تكن الأبواب أو البوابات بها مستطيلات سوداء. يقدم بو عباس بعض التنوع في طبقاته البازلتية، فالقلعة التركية فيه مبنية بالكامل من الحجارة السوداء. يبدو أن الحمم البركانية انتشرت

فوق الحجر الجيري ككتلة شبه صلبة، ومن خلال المقاطع العرضية الرائعة التي تظهرها جدران الوديان، يستطيع الجيولوجي التعرف على صخور الحجر الجيري في الطبقات العميقة، والتي تكونت من أصداف الشاطئ وبلح البحر. فوق تلك الصخرة الطوفية، يمكننا أن نميز طبقة من الرخام الجميل جداً. لقد قام السكان الأصليون بتحويل قاع وادي ورفلة إلى مزارع زيتون وحقول شعير تتم صيانتها جيداً. وفي طرابلس يُشاد بخصوبة هذه الزاوية من الصحراء، ولكن ماذا يعني ذلك في الواقع؟ فهي لا تكاد تكون امتداداً لحوض النافورة في ساحة الكونكورد! تعتبر هذه الزاوية أيضاً مكاناً مشهوراً للعقارب، ويمكن للمرء أن يقول صادقاً إنها تختبئ تحت كل صخرة. وقد عُثر على ثلاثة في عباءتي، بعد أن كنت مستلقياً على الأرض للحظة. وكنت قد رفضت الضيافة في البيوت، لأن العقارب تسكن السطوح وتسقط على النائمين ليلاً. ومن الأفضل نصب الخيام في الهواء الطلق وتنظيف أرضية المخيم جيدًا.

وفي ورفلة تكون هذه الحشرة البشعة أكبر حجماً من تلك الموجودة في أوروبا، ولكنها ذات لون أخضر. ويخشى السكان الأصليون لسعتها، لكنهم يقولون إنها ليست قاتلة، فإذا تم فرك الجرح بأعشاب معينة، فسوف يتحسن خلال أربع وعشرين ساعة. وربما يكونوا قد أصبحوا في النهاية غير حساسين تجاه سمومها جيلاً بعد جيل، ولكن المؤكد أن الغريب في خطر أكبر، كما حدث لخباز عربي من طرابلس، توفي متأثراً بعد دقائق قليلة من اللسعة السامة.

كل مساء، كانت تمتلئ خيمتي بالزوار المختلفين، وقد حكوا لي الكثير عن آثار معينة في قرزة وفي حوض زمزم، وقد وصفوها لي بطريقة تجعل المرء يرغب في رؤيتها. لذلك قررت أن أذهب بعيداً في اتجاه الجنوب، وبعد ثلاثة أيام، توصلت إلى نتيجة مفادها أنه لن يكون لدي مرشدون أو مرافقون للقيام بذلك، فليكن! سوف أخرج بمفردي، لذلك غادرت ورفلة متجهاً جنوباً دون أي إشارة أخرى، غير الإشارة الغامضة إلى الاتجاه. وبما أنه كان لا بد من وجود جنود في زمزم، فقد أحضرت مؤناً وطعاماً للحيوانات يكفي لثلاثة أيام فقط، وهو ما يمكن أن تحمله جمالنا. لقد تقدمت في الطريق دون أن أُبعد نظري لحظة واحدة عن البوصلة، تلك البوصلة البائسة التي كانت سندنا الوحيد في هاوية العزلة حيث لم تطأها قدم العربي الذي اعتاد السكن الدائم.

أما الهضبة الصخرية الرهيبة، التي تمتد بين الأودية الموازية، بني وليد ووادي

زمزم، فهي جزء من المجرى الشرقي للأراضي الطرابلسية المرتفعة، والتي تنتهي عند صخور منخفضة بجوار بحيرة تاورغاء المغمورة بالطمي في هذا الوقت. وكانت الخيول والجمال تتعثر باستمرار فوق الحجارة الضخمة، وكانت تسقط في بعض الأحيان وتؤذي نفسها، ويمكن للمرء أن يتتبع أثرها من خلال قطرات الدم التي تسقط وسط كل هذا الركام، الذي يشبه إلى حد ما أنقاض مدينة عملاقة. وكان علينا أن نواصل السير في ظل حرارة تهدد بإصابة المرء بضربة شمس. فقد اشتكى ناختيجال من رحلة استغرقت يوماً واحداً، كان عليه أن يمشي خلالها ثماني ساعات، أما نحن فقد غطينا 12 وأحياناً 15 ساعة. إذ أجبرتنا الوديان الضخمة والضيقة، كوادي العكرمي وأجيرو وشظاف وتالا، على النزول والتسلق بصعوبة عدة مرات للوصول إلى الهضبة، وفي كل مرة كان يتطلب ذلك منا إفراغ الجمال وتحميلها عليها مرة أخرى، كما حدث ذات مرة في محمود. أجبرتنا عاصفة رملية في تالا على البقاء في مكاننا لمدة عشر ساعات، وأدت إلى اختناق أحد الخيول.

«ومما زاد الطين بلة، نفاد الطعام، ولا أستطيع أن أتخيل عودتنا في تلك الحالة التي كان عليها فريقي وحيواناتنا بعد يومين بدون ماء وفي حالة من الإرهاق التام. كنا سنموت جميعاً قبل أن نقطع نصف طريق العودة، وقد بدا أن البؤس قد وصل إلى ذروته، وأنه لا يمكن إنقاذنا إلا بمعجزة.

حدثت المعجزة، ففي مساء العاصفة في تالا، بينما كان المعسكر قيد الإعداد للتوقف في واد جانبي لوادي زمزم، أفزعت إشارة الإنذار جميع العاملين معي، حيث ظهر رجال مسلحون يقتربون عند حلول الظلام، فأمسكت بسلاحي وتقدمت إلى الأمام. ولم تكن هذه الشخصيات المرعبة سوى أعضاء مسالمين في قافلة كان عليها نقل الملح بين سيوط ونفوسة، فتحدثنا معهم بكل ود، ومقابل القليل من النقود تم تجديد مؤونتنا لمدة يومين، وأرشدنا قادة القافلة إلى الطريق الصحيح.

منطقة وادي زمزم ليست شريطاً عريضاً من العشب خالياً من الصخور. فالرمال الصفراء في قاع الوادي مناسبة لزراعة محاصيل الحبوب، ويذهب البدو الفقراء للزراعة حيث يجدون الأنابيب القديمة التي لا تزال قادرة على الاحتفاظ بمياه الأمطار. وهكذا، يسكن السدادة نحو مئة شخص، في حين لا توجد روح حية في أي مكان حولها.

تقع آثار قرزة الشهيرة على بعد عشرة كيلومترات غرب السدادة عند مصب واد

صغير على الضفة الجنوبية لوادي زمزم، ولم يُخبرني أحد كثيراً عن تلك الآثار، فالآثار فاقت توقعاتي بكثير، وهي الأجمل في كل طرابلس.

أول ما لفت انتباهنا عندما وصلنا، كانت أسوار مدينة حقيقية. وتتكون المباني التي يبلغ ارتفاعها من 8 إلى 10 أمتار من جدران من الحجارة الصغيرة المربعة التي رُبطت ببعضها البعض بعناية، ولا يزال نحو عشرين من هذه المنازل الضخمة يتوج الضفة اليسرى لوادي قرزة، على بعد 300 متر من مخرج زمزم. كانت المنازل مكونة من طابقين على الأقل ومحاطة بأسوار، وأظهر بعضها أبراجاً ثقيلة ومستديرة. فالمدينة لا تشبه صبراتة وأويا ولبدة، حيث جميع المباني فيها من الحجر المقطوع، وقد زُينت المعابد والقصور والمباني العامة فيها بشكل متقن.

في قرزة، المدينة المبنية بقوة لا تحتوي على أي زخارف على الإطلاق، فقد صُمم كل شيء بهدف المتانة والراحة فقط. ويذكرنا حجم وعدد المنازل بتلك الأماكن التي شُيدت بانتظام في أمريكا، أي المدن الجديدة التي ظهرت فجأة في وسط المناطق المستغلة حديثاً.

من المؤكد أن الازدهار هنا كان عظيماً في الماضي، ويبدو أنه استمر لفترة طويلة، لأن مكانين متساويين في الحجم يقعان بجوار قرزة، أحدهما على نفس الضفة والآخر على الجانب الآخر. ولن تجد في أي مكان في أفريقيا مقابر مماثلة لهذه المقابر من حيث القدم وثرائها بالنقوش.

****



قائم مقام القرابوللي

ولا تزال مقبرة الموتى الموجودة تحت الأرض تتألف من سبعة أضرحة، الواحد فوق الآخر على منحدر الوادي. الضريح الأول، وهو الأقرب إلى المدينة، له شكل وحجم المعبد الحقيقي، ويذكرنا هذا البناء القوي الذي يشبه القرفصاء إلى حد ما بالمباني المصرية. وهنا وجدت قبر امرأة تُدعى منيمير، أقام ابناها ناصيف ونجشيش نصبها التذكاري. وتبدو هذه أسماء محلية، على الرغم من أن النقش وبناء النصب التذكاري رومانيان. أما الأضرحة الأخرى، وهي أعلى ولكنها أضيق، فهي ليست أقل شأناً من الضريح الأول، بل الأعمدة والنقوش فيها أكثر ثراءً.

المقبرة، التي تقع على الجانب الآخر من الوادي، تشبه إلى حد كبير المقبرة الأولى، ولكن بها قبر فريد من نوعه، وهي عبارة عن مسلة يبلغ ارتفاعها 15 متراً على قاعدة، ولا يزيد عرض جوانبها عن 1.50 متر. ويوجد إطاران يقسمانها إلى ثلاثة طوابق، وينتهي أعلاها بتاج، ومن بعيد تظهر كإبرة. وتدل جميع النقوش على أن الأشخاص المدفونين هناك كانوا نوميديين.

ويمكن للمرء أن يتعلم المزيد عن تلك المدن الجنائزية، وهي حقائق لم نكن نتوقعها، وتظهر بوضوح على القوالب المركزية والنقوش البارزة تفاصيل الحياة المنزلية في ذلك الوقت، والتي تعود إلى القرن الرابع أو الخامس. لقد قمت بعمل مطبوعات لمشاهد كانت رائعة بقدر ما كانت مسلية، ومن بينها نرى النساء يرضعن أطفالهن أو يعدن الطعام أمام المدفأة، والمحاربين الذين يقاتلون بأسلحة غريبة، والصيادين الذين يطاردون الأسود والغزلان والزرافات. كل تلك الشخصيات ترتدي أزياءً لم تعد موجودة، بل ضاعت حتى ذكراها.

نشاهد نقوشاً للجمل المربوط بالمحراث في كثير من الأحيان، ومن المعروف أن علم الآثار لم يحدد بعد الوقت الذي تم فيه إدخال الجمل إلى أفريقيا. وكان من المفترض عموماً أن الحيوان جاء من الجزيرة العربية، كما أثبتت الحفريات الأخيرة في تونس أن سفينة الصحراء قد أدت بالفعل دورها في العصر الروماني على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. ولكن لم يكن هناك يقين بعد بشأن ظهوره في الداخل، ولم يتم إثبات وجوده هناك بعد. وتخبرنا قرزة أن هذا الحيوان المفيد كان موجودًا قبل ستة قرون من وصول المحمديين، وأنه لم يكن يُستخدم كما هو اليوم للسفر في الصحراء فحسب، بل كان يُستخدم أيضاً في الزراعة.

كما شغلت تربية سلالة رشيقة من الخيول سكان قرزة، الذين شاركوا بها في السباقات، ليس مع الحصان البربري القبيح الأخرق، بل بحيوان نحيف ورشيق يذكرنا بأجمل الخيول السورية. وربما لم يكن النعام قد تم تدجينه بعد، كما هو الحال اليوم في السودان والرأس، ولكن الناس كانوا مشغولين بصيد النعام، بالتأكيد للاستفادة من ريشه. بل أظن أن مصارعة الثيران لم تكن مجهولة، فالأفاريز تصور رجالاً يتصارعون مع الثيران.

تصور بعض الرصائع أشخاصاً مزينين بالأحجار الكريمة والمجوهرات، مما يذكرنا بالاحتفالات أو المناسبات الكبرى.

ويتعجب المرء من الفرق بين ماضي هذه المدينة والحالة المنقرضة الحالية

المحيطة بتلك الآثار. فمشاهد المخابز وكروم العنب ومهرجانات الحصاد المنحوتة على الحجارة تقول بوضوح كبير إن حقول الذرة وكروم العنب وأشجار الفاكهة كانت تغطي ذات يوم الأرض القاحلة والجرداء. وباستثناء عدد قليل من أشجار الخروب في وادي قرزة، لا يمكن الآن رؤية شجرة واحدة ترتفع فوق الأرض الرملية الصخرية، فماذا يمكن أن تكون تلك المدينة الغامضة؟



الساحر عند البربر.

«لقد مررت ببعض اللحظات الصعبة في ذلك المكان، فعندما كنا نستعد لالتقاط

الصور الأولى، رفضت الآلات الثلاث العمل نتيجة اهتزازها الشديد على ظهور الجمال. وهكذا كنا سنُحرم من الوثائق الأكثر قيمة في الرحلة بأكملها! ولكن بمحض الصدفة، تمكن العبقري بيبينو من إصلاح الآلات، وفي المساء قمنا بتطوير أفضل الصور ونحن في غاية الرضا.

كنت أنوي في الأصل العودة إلى طرابلس على طول الساحل، خلف بحيرة تاورغاء القديمة، ولكن سكان السدادة، الذين يعرفون الطريق، لم يروا أي شيء مميز من الأشياء التي تهمنا، بينما إذا مررنا بمصراتة ومن خلال وادي نفد ومردوم، فسنشاهد المزيد من المقابر «الكبيرة جداً والجميلة جداً».

بتوجيه من المرشد اتجهنا نحو وادي نفد، الذي وصلنا إليه عند مصب فرعه في وادي أحمد. وقد حفر وادي النفد مجرى عميقاً جداً في الهضبة في هذه المنطقة، وكانت جوانبه شديدة الانحدار ومتوازية تماماً مع بعضها البعض لدرجة أنها تذكرنا بواجهات أحد الشوارع العملاقة.

كانت جميع الأماكن القديمة التي رأينا بقاياها تقع على ارتفاع ما من حافة الأودية، حتى لا تتضرر من اندفاع المياه المفاجئ. وكانت مدينة أحمد على بعد خمس أو ست ياردات فقط من الحافة، ولم أستطع أن أشرح هذا الشذوذ، بل أود أن أقول إنه إهمال، لأنها لم تكن قرية بُنيت مؤقتًا فقط، بل مركزًا دائمًا أصبح الآن معرضًا لفيضانات مفاجئة بسبب موقعه. وكان هناك قبر على شكل مسلة، أقل ارتفاعاً وأقل فخامة من قبر قرزة، قائماً على قمة صخرة. وعلى الضفة الأخرى من وادي النفد، شوهدت آثار مماثلة للحضارة الرومانية بكثرة، وهي تقع على طول الوادي بأكمله حتى البحر، وتعد الأجمل من تلك الموجودة في لاكاديا.

لقد تركنا مرشدنا في وادي الدوم، وعلى الفور اكتشفنا فقدان المطرقة القديمة، وشعرت بالأسف، فقد جعلتني تلك الشخصية الصعبة أشك في صدقه ومصداقيته في عدة مناسبات. ففي ورفلة، سُرق سيفي، الذي اعتبرته مفيداً لي في بلد من الأفضل أن تكون فيه مسلحاً دائماً، دون أن يكون من الضروري دائماً أن يراها الجميع. وفي تالا، كان هو المسؤول عن تضليلنا بإصراره على طريق ما، تبين فيما بعد أنه لا يعرفه. وفي نفس المساء تولى أخيراً الحراسة الليلية، والتي لا ينبغي إهمالها أبداً بسبب كثرة المتجولين الخطرين، فلما استيقظت لم أجده في المخيم، ولا أحد يقف مكانه لحراستنا. فجعلت الجميع يستيقظون على الفور، وعندما عاد عامر عند الفجر، لم أعرف من أين أتى، فدفعت له أجره فاختفى مع ابنه.

وهذا يظهر مرة أخرى أنه لا ينبغي للمرء أن يثق بأي عربي، حتى بأفضلهم. كان هذا هو الشخص نفسه الذي كان مرافقاً للقنصل الإنجليزي لمدة عشرين عاماً ورافقه في رحلات الصيد الخاصة به، والذي رافقني طوال رحلة 1901، وكنت أعامله دائماً كصديق، وأعطيته كل ما طلبه، وبدون أي سبب، ربما فقط بسبب تجدد الكراهية ضد المسيحيين، فقد عرّض حياتنا للخطر بشكل تعسفي. ولا يسعني إلا أن أهز كتفي عندما أسمع منتقدين متوهمين يرددون: «لا نعرف كيف نتعامل مع العرب». لا يمكن للمرء أن يفوز بثقة العرب، فهم يحتقروننا لأننا «الرومي»، فإذا عاملتهم بقسوة فسوف يطيعونك، ولكنهم سينتقمون لاحقاً، وإذا عاملتهم بلطف فسيعتقدون أنك خائف منهم، ولن تكسب منهم شيئاً، ولن تنجز منهم أي شيء. وبالشدة يُمكن تحقيق أفضل النتائج.

بين مردوم ومصراتة الطريق جيدة جداً، ويمر المرء عبر سهول تظهر فيها مجاري وادي ميموان مصراتة والساسوي وفرعه الأويجران كشرائط خضراء جميلة. حيث يوجد العديد من الخيام وقطعان كبيرة من الماشية.

كان السكان لطفاء ومضيافين بشكل استثنائي، وكانوا يحضرون لفريقي كل مساء طبقاً كبيراً من البازين في صلصة حارة جداً، وهو أمر لا يطاق بالنسبة للذوق الأوروبي.

«جَثَا الأعيان على رُكبهم عند مدخل خيمتي وجلسوا هناك لساعات طويلة، وبما أن كل رومي في نظر الأفارقة هو طبيب، فقد أحضروا مرضاهم إليّ، وسرعان ما فرغت صيدليتي الصغيرة بين أيديهم. ولقد بلغ السذاجة بأحدهم حداً جعله يسألني عن سر إنجاب الأطفال الذكور، وأنهم الوحيدون الذين يُعتد بهم في العالم الإسلامي. فيما ائتمنني آخر على وصفة لعلاج أشد آلام الأسنان فوراً، وذلك بوضع قليل من الماء الدافئ الناتج عن حجر صوان ملتهب على الموضع المؤلم.

كان بعض هؤلاء الأعيان يمتلكون بنادق من طراز Le-Gras، كانوا قد اشتروها من مهربين أتت بضاعتهم من اليونان، حيث تتخلص وزارة الحرب لدينا من بنادقها القديمة. لكن هذه البنادق لا تخدم أي غرض آخر سوى الاستعراض، لأن كل خرطوشة تكلف نحو ثلاثة فرنكات، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لهذا البلد.

استغرقت رحلة اليوم الأخير للوصول إلى مصراتة سبع عشرة ساعة، وكان منتصف الليل عندما دخلنا المدينة أخيراً تحت ضوء القمر، بعد ساعتين من اتباع طريق متعرج تحت أشجار النخيل. منذ أن أُعلموا بوصولنا، انتظرنا المسؤولون الأتراك بوجبة سخية وكوب من الماء العذب وسيجارة، انقطعت

عنها منذ فترة طويلة، وتمنحني متعة لا يمكن لأي شيء آخر أن يمنحني إياها. ويا لها من متعة العثور على سرير بملاءات بيضاء! لقد كانت غرفتي أغرب متحف يمكن للمرء أن يتخيله، فقد جمع العربي الذي تنتمي إليه كل الأشياء الأوروبية التي وجدها في طرابلس، من صناديق الموسيقى والمصابيح والفونوغراف وأجهزة الاستريوسكوبات الموضوعة على الأثاث، إلى جانب المقالي والمواقد والأحذية. غطيت طاولات التقديم والخزائن بطبعات ملونة مأخوذة من مجلة بيتي جورنال ولوحات الموضة، وعلقت زخارف على الجدران مقابل الأحذية ذات الأربطة. لقد كانت غرفة غريبة للغاية، ولذلك كانت مخصصة للغرباء، أما المالك نفسه فلا يقيم فيها أبداً.

تناولت وجباتي هناك مع القائممقام، وهو مسؤول تركي شاب يتحدث الفرنسية بطلاقة، وشربنا الشمبانيا المعتقة، المصنوعة في ألمانيا، والتي شُحنت إلى أفريقيا بأفضل الأسماء الفرنسية.

وللأسف، فإن مدينة مصراتة لا تقع على البحر، لذا فهي تستفيد قليلاً أو لا تستفيد على الإطلاق من مراكب الشركة الإيطالية التي تزور الموانئ المجاورة. ويبلغ طول الواحة التي تقع المدينة في مركزها نحو عشرة كيلومترات ويسكنها نحو 30 ألف نسمة، يقومون بتخزين مخزون الشعير في الصوامع ويعملون أيضاً في صناعة السجاد الصوفي ذي القيمة العالية. ووفقاً لبارت، فإن المدينة هي ثيبونتي القديمة في رحلة أنطونيوس.

بحسب ما ذكره الكاتب العربي مرمول، كانت هناك تجارة حية ومزدهرة في العصور الوسطى مع البحارة المسيحيين، حيث كان السكان المحليون بمثابة وسطاء مع الزنوج القادمين من السودان، وكان الفينيقيون يأتون لجلب نوع ثمين من الصوف، وكانت الإشارة إلى أهمية «زيت مصراتة» مماثلة لما هو الحال الآن مع «زيت جنوة». وكانت البندقية تحصل أيضاً على المسك والعاج وريش النعام من القوافل وتبيع بدلاً منها المصنوعات الزجاجية، وفي مصراتة، كان الحجاج المغاربة والجزائريون المتجهون إلى مكة يتزودون بالخيول التي كانت تُصدر أيضاً إلى الإسكندرية. أما في الوقت الحاضر، فإن السوق يقتصر تقريباً على الأشياء ذات الاستعمال المحلي وعلى ما تحتاجه القوافل بين طرابلس وبنغازي، وإحدى هذه القوافل تأتي كل يوم جمعة وتأخذ معها أقمشة من الصوف المخطط، والتي تُسمى «مرقوم» وتُستخدم في الولاية.

غالبية التجارهم من اليهود، والقليل منهم من الفرنسيين الذين هم من أصل جزائري أو تونسي. ويدعي الرحالة العربي الحشائشي أنه لا يوجد أمان للأشخاص ولا للبضائع، لكننا هنا لم نشتكِ من أي شيء. وتقع زليتن، على بعد خمسين كيلومتراً إلى الغرب، في واحة كبيرة، وسكانها شديدو التنازع وسريعي استخدام السكين، وهو ما يتكبده اليهود غالباً على حسابهم.

من زليتن، أعادتنا مسيرة ثلاثة أيام إلى طرابلس، وكان الوقت قد حان لإنهاء الرحلة، لأن فريقي والحيوانات لم تعد قادرة على الاستمرار، فقد طالت مدة الرحلة أكثر مما توقعت.

وفي أبريل عام 1904، انطلقت مرة أخرى مع قافلة جديدة، رافقني فيها موبني، وهو إسرائيلي كان يعمل مصوراً، وأعطاني قائم مقام قصر قارابولي خمسة فرسان كحراسة، تحت قيادة الملازم التركي محمد علي.

كانت خطة رحلتي، والتي وضعت مع الرغبة في رؤية أكبر قدر ممكن مما فاتنا في عامي 1901 و1903، أن تقودنا أولاً إلى وادي لبدة، ذلك الوادي الجاف، الذي يأتي من ترهونة وكان قديماً يغذي الميناء الداخلي لمدينة لبدة. وتتبعنا الوادي، ووجدنا في كل مرة آثارًا لازدهار مندثر.

في هامويت كانت محطتنا الأولى على تلة منعزلة تعلوها قلعة متداعية للغاية، وظهر استهتار العرب بأمور النظافة من الرائحة الكريهة التي انبعثت من جثة كلب لم يزلها العرب من محيط معسكرهم.

وتعتبر مسلاتة، التي وصلنا إليها مساء ذلك اليوم، المركز الرئيسي للمنطقة وتتميز بخصوبتها وبيوتها الحجرية.

خلال رحلتنا عبر تلال مسلاتة، واصلنا مقابلة قطعان من الأغنام والماعز، وكانت مسلاتة جميلة، وكانت هذه الأغنام تلبي جزئياً احتياجات الجزارين في مالطا وسوسة وصفاقس، ويتم بيعها في المتوسط مقابل 12 فرنكاً في أسواق طرابلس، ومن هناك يتم إرسالها إلى إنجلترا.

في جنوب غرب مسلاتة تختفي الأشجار تماماً، ولا نواجه هنا وهناك إلا مخيماً للبدو منتشرين في السهل الرملي أو وسط صحراء الحلفاء العشبية، فنبات الحلفاء منتشر جداً هنا.

وفي قصر ترهونة التقيت مرة أخرى بالسيد الرائع أحمد بك، الذي استقبلني في العام السابق بالعجيلات، وقد أصبح الآن القائممقام في هذه الهضبة ويقيم في أحد الفنادق القديمة. لقد أضاف القائممقام للتو امرأة جديدة إلى حريمه، وقد وصلت في اليوم السابق على ظهر جمل في محفة جميلة، أُغلقت ستائرها بعناية. ويمكننا أن نعجب بالنجارة الجميلة مع ورق الحائط الغني والطلاء الجميل، فقد كان الجمل يتجول في الساحة والجهاز بأكمله على ظهره.

قيل إن الشابة كانت جميلة جداً، ولا بد أن الزوجة الأولى ذرفت دموعاً كثيرة عندما سمعت عنها، ولكنها غالباً ما ستواجه شيئاً من هذا القبيل، لأن الرجل لا يزال صغيراً جداً، والعرب يكملون أسرهم بهذه الطريقة أكثر من مرة، وأي زوجة لم تُطلق يمكن أن تعتبر نفسها محظوظة.

يفصل وادي الران العميق ترهونة عن غريان، وذهبنا إلى هناك على طول الوديان شديدة الانحدار ووجدنا أول منازل الكهوف هناك.

سكان غريان عرب ويتكونون من أربع قبائل، وجميعها تضم منازل تحت الأرض، والأرض خصبة وتنتج الكثير من الحبوب، وبعض الوديان مغطاة بأشجار كبيرة وجميلة جداً من الزيتون، بحيث تتلامس أغصانها مع بعضها البعض وتوفر الظل لمسافات طويلة. ولا يوجد مثل هذا البلد نضارة وخضرة في كل طرابلس.

في جنوب غريان التقيت بالعديد من قادة القوافل الذين كانوا عائدين من السودان بعد ثلاث سنوات من الغياب، وكانوا مليئين بالثناء على الفرنسيين ويبدو أنهم احتفظوا بأفضل الذكريات مع القوات الفرنسية التي رافقت القوافل بين زيندر وآير.

من غريان اتجهنا نحو مزدة، وفي منطقة الظاهر التي تقع في وسط سوف الجين، وفي كوليبا، حيث كنا على وشك نصب خيامنا، جاء رجل يركض نحونا، وهو تاجر عربي من طرابلس، وكان صديقاً حميماً لضابطنا. لقد كان شديد الإصرار لدرجة أنه كان علينا أن نوافق على الرغم من نفورنا من مساكن السكان الأصليين، حيث كان يضطرب منامنا دائماً بسبب جيوش الحشرات. لقد عُرض علينا كهف صغير جدًا بالنسبة لنا جميعًا لقضاء الليل، وكنا سعداء بالرحيل عندما جاء الصباح.

في الطريق إلى مزدة، قمت برحلة جانبية مع محمد علي في الاتجاه الشرقي لرؤية أطلال العجب، والتي وجدناها دون صعوبة. كان هناك ضريح ضخم وسط

العديد من الأنقاض، ولكننا لم نتمكن من العثور على أي جزء من التماثيل التي كان يُفترض وجودها في الكوات، ولا على أي إشارة في نقش. وفي تيجي، عدنا إلى الآخرين وتحدثنا هناك مع الرئيس سالم السهلي، الذي اشتكى من أن التجارة تتعافى ببطء شديد من الضربة التي وجهها إليها رابح، وذلك بسبب الدمار الذي أحدثه في السودان والذي أدى إلى شل حركة التجارة العابرة.

ومن بين المواد التصديرية الثلاثة، فقدت مادتان بالكامل، وهما ريش النعام والعاج، وهو يصدر الآن جلوداً مدبوغة، يذهب الكثير منها إلى الولايات المتحدة. أما الريش فلم يعد يُتاجر به تقريباً في سوق باريس، لأنهم يفضلون ريش منطقة الكاب على ريش طرابلس، والعاج الذي كان يُجلب في الغالب من منطقة وداي، فإنه منذ أن انتهى بناء السكة الحديد إلى الخرطوم، صار يذهب عبر النيل إلى الإسكندرية بدلاً من أن يذهب مع القوافل إلى طرابلس وبنغازي.

«تقع مزدة، التي وصلنا إليها في المساء، في منطقة وادي سوف الجين وهي ذات طابع عربي، وقد عانت هذه المنطقة أيضاً في الآونة الأخيرة بسبب تحول طريق التجارة. إذ تقع مزدة عند ملتقى الطرق المؤدية إلى فزان وغدامس، ولكن القوافل المتجهة من طرابلس إلى فزان تسلك الآن طريق ورفلة، أما تلك المتجهة من طرابلس إلى غدامس فتسلك طريق جادو. وهكذا أصبحت مزدة مكاناً مهجوراً، وبدا أن الناس هناك يعانون من العوز. لقد ساعدناهم ببعض المواد الغذائية، فقد كان العام شديد الجفاف وكان البؤس عظيماً.

لطائفة السنوسيين نفوذ كبير في المنطقة المحيطة بمزدة، وعلى الرغم من أنهم يطيعون المسؤولين الأتراك ظاهرياً، إلا أن قلوبهم تخضع «للإخوان السنوسيين».

بعد يوم واحد من مغادرتنا مزدة، جاءنا رسول يحذرنا من أن الطريق غير آمن، لأن التوارق خرجوا للنهب، وهم لصوص مزعجون يستهدفون بشكل خاص القوافل الفرنسية، منذ أن أُبعد الكثير منهم من الصحراء الفرنسية. فكر محمد علي في العودة، ولكني قررت أن نبقى في حراسة مشددة وأن ننتظر الأسوأ. فلم يظهر التوارق، وواصلنا رحلتنا عبر كدوة عائدين إلى طرابلس.



.مسجد شمسا في وادي غريان.

وعندما وصلنا إلى هناك، استطعنا أن ننظر بارتياح إلى الوراء إلى الرحلة، التي علمتنا الكثير من الأمور الجديرة بالاهتمام، وجعلتنا نرى أن المستعمرات الزراعية للرومان كانت مُقامة في نفس الأماكن التي لا تزال فيها الأراضي الزراعية قائمة حتى الآن. وتدل قنوات المياه والسدود والآبار والمدن والقرى والحصون المحصنة على مدى أهمية المستعمرة الرومانية هناك، وكيف أن الاحتلال اللاحق من قبل العرب قد وضع نهاية لفترة الازدهار. وإذا كانت تلك الأماكن المتداعية ستزدهر من جديد، فيجب أن يكون ذلك من دون العرب الكسالى وغير المبالين، ولكن مع مستوطنين آخرين، سواء كانوا بيضاً أو زنوجاً.

إنتهى

ملاحظات

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

من قلب شغفنا بالمعرفة، ورغبتنا الصادقة في بناء جسور متينة بين الثقافات، انطلقت مؤسسة "Libyan Word Bridge" لتكون أكثر من مجرد دار نشر، بل لتكون منصة ثقافية حقيقية، تتيح للقارئ العربي الولوج إلى عوالم المعرفة الغربية المترجمة، وتشاركه رحلة استكشاف الآفاق الفكرية والأدبية المتنوعة. نسعى جاهدين إلى سد الفجوة المعرفية، وإثراء المحتوى العربي بمواد علمية وأدبية ذات قيمة حقيقية، مستفيدين من الإمكانات الهائلة التي يوفرها التطور المتسارع في مجال الترجمة الرقمية، ومن توفر العديد من الكتب التي أصبحت خارج نطاق حقوق الملكية الفكرية، لتصبح متاحة للجميع دون قيود أو حواجز.

إننا إذ نقدم هذه الترجمات، فإننا نضع نصب أعيننا هدفاً آخر لا يقل أهمية، وهو أن تكون ترجماتنا محايدة وموضوعية قدر الإمكان، وأن تكون بمثابة مرآة تعكس بصدق رؤية المؤلف الأصلية، لا أن تكون صدى لأهوائنا أو تحيزاتنا الشخصية. فكم من مرة رأينا كيف أن التوجه الأيديولوجي للممولين، أو الخلفيات الفكرية للمترجمين، أو حتى المصالح التجارية، قد أثرت على طبيعة الترجمة، وشوهت بعض معانيها، أو حرفتها عن مقاصدها الأصلية. هذه الاعتبارات مجتمعة، تخلق في كثير من الأحيان قيوداً غير مرئية، قد تُنتج ترجمات مُوجّهة أو منقوصة، لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤلف بشكل كامل وصادق.

2025/1/13

الناشر

LIBYAN WORD BRIDGE Translation